مقال لم يُنشر بالعربية للمفكر الراحل

الآخرون.. من هم؟ وكيف نتعامل معهم؟

إن كل لقاء ينعقد بين الحين والآخر، سواء كان متمثلا فى حلقات بحث أو مؤتمرات أو ورَش عمل أو غيرها من الأنشطة الأكاديمية الأخرى، وكذلك وسائل الإعلام وتناولها للإسلام والمفاهيم الأخرى غير الدينية، فى أوروبا أو فى الغرب على العموم، وعند تناول مواضيع كالتنوير أو الحداثة، بما فى ذلك الحديث عن حقوق الإنسان، وحرية الدين وحرية الرأى والتعبير، أقول إنه لا بد لنا من إعادة النظر وإعادة التفكير فى كل ما سبق ذكره. وبما أن شاغلنا الأكبر والأهم هو الموقف السوسيو – سياسى المعاصر، والوضع الفكرى فى العالم الإسلامى وعلاقته بالغرب، فإننى أرى أن النقاش ستتولد عنه أخطاءً مفاهيمية، وبما سيترتب عليه من فهم خاطئ للإسلام، طالما أنه قد تم إقحام «الإسلام» نفسَه فى النقاش بدلا من العالم الإسلامي. فى هذه الحالة، ستتحول كل القضايا السوسيو – سياسية إلى قضايا لاهوتية مثل تحويل الممارسات الحياتية، المتعلقة بالممارسة فى المجال العام، إلى قضايا لاهوتية، وهذا بالضبط ما يسعى له أى متطرف أصولي. كما يلزم تجنب مساواة أخرى ألا وهى المساواة بين الإسلام كدين وبين المسلمين كمجتمعات أو كأفراد بحيث لا يصبح أى تصريح أو تعليق أو نقد للدين الإسلامى ساريًا بشكل فورى على المسلمين كجماعات أو كأفراد. يدعو الأصوليون إلى تصور لكيان موحد يسمى «الأمة»، ويتجاهلون السياق السوسيو – سياسى والتنوعات والاختلافات الثقافية فى الدول ذات الأغلبية المسلمة. إن الاختلاف الثقافى بين جنوب شرق آسيا حيث يعيش غالبية مسلمى العالم، وتركيا وإيران والعالم العربى يتم التقليل من تأثيره بالقطع. وفى العالم العربى نفسه، فإن إسلام المملكة العربية السعودية مميز بمذهبها المحافظ بشكل راديكالي، أقصد الوهابية. وبالتالي، فإن الأصوليين يتبنون مبدأً ساذجًا لإسلام مثالي، لا – تاريخي. إن نسخة الإسلام التى يعتنقونها مُحددة، ومُقيِّدَة، خاصة بفئة بعينها، أى أنها نسخة حصرية، ومتعصبة فيما يتعلق بالتشريعات، وإلزامية بطبيعة الحال. إن إسلام «السيف» الذى يمكن رؤيته على علم المملكة العربية السعودية، يمثل نسخة الإسلام الأكثر جذبًا للخطاب الأصولي. بينما يظل إسلام «الرحمة»، والتقوى، والتعبُّد الروحي، والتعامل مع التعدد الثقافى والدينى فى العالم كرحمة إلهية، بعيدًا عن تصوراتهم محدودة النظر.

يلزمنا أن نخرج من هذه المصيدة لكى نحرر أنفسنا من فخ الخطاب الأصولى المتعلق بالإسلام والذى يحدد أسلوب النقاش أو الجدال. وإلا فإننا سنكون مقيدين باحتمالين فقط: إما أن نخطئ فى حكمنا على الإسلام بتقييمنا لتعاليمه طبقًا للخطاب السائد الذى تم الإشارة إليه أو أن نتخذ موقفًا دفاعيًا، نحاول من خلاله عزل الإسلام عن سياقاته لنجعله يبدو حداثيًا وعصريًا. إن الاختيار الأول تبناه سياسيون ومفكرون غربيون ينشرون خطابًا معاديًا للإسلام. إنهم يعتبرون الخطاب الأصولى الراديكالى «المتطرف» ممثلا لحقيقة الإسلام. وبالتالي، فإن هذا الخطاب المعادى للإسلام بمثابة صدى الصوت للأصولية. الاختيار الثانى يتمثل فى تبنّى خطاب سجالى أو تبريرى وهو اختيار لا يملك تأثيرًا حقيقيًا، لأنه يسير خلف الأصولى المتطرف، على نفس الطريق. وفى هذا الخطاب، يتم تقديم الإسلام باعتباره يوتوبيا مُعرَّفة بشكل واضح، ومثالية، وكذلك باعتباره يوتوبيا أخلاقية وروحية، لا – تاريخية.

إن المقاربة المؤثِّرة تتمثل فى موضع الإسلام فى سياقه التاريخي، القرن السابع الميلادى فى شبه الجزيرة العربية، لكى نفهم الكيفية التى تبلور من خلالها الإسلام وكذلك الكيفية التى تطوَّر من خلالها، فى شبه الجزيرة العربية وخارج شبه الجزيرة العربية بعد ذلك. وفيما يتعلق بالنص المؤسس للإسلام، أى القرآن، فإن المقاربة التاريخية النقديةَ ضرورية لتحديد مجالات وحدود المعانى التى ولَّدها القرآن وأمدَّنا بها. إن هذه المقاربة تهتم بدراسة الطريقة التى تشكل من خلالها القرآن، ليس وفقًا لترتيب النزول تاريخيًا، بل يهتم بدراسة تشكله من خلال الطريقة التى نقل القرآن بواسطتها، والكيفية التى انتشر من خلالها، وترتيبه بحسب التلاوة «ترتيب التلاوة»، حتى أصبح فى النهاية مُقننًا «عملية تقنين القرآن».

إن هذه الخطوات ضرورية قبل أن نشرع فى عملية استخراج المعنى من القرآن ومن ثم دراسة مدى مناسبة هذا المعنى لوسطنا الاجتماعى الحديث.

من هو الآخر؟

دائمًا هناك إجابة بسيطة للسؤال البسيط. لو أننا تعاملنا مع الإسلام باعتباره هوية حصرية، فإن «الآخر» سيتم تعريفه، بسهولة، باعتباره غير المسلم، سواء كان/ كانت يهوديًا/ يهودية، مسيحيًا/ مسيحية، هندوسيا/ هندوسية، بوذيا/ بوذية، غير متدين/ غير متدينة، ملحدا/ ملحدة.

ولو تعاملنا مع الإسلام من خلال تجلياته المتعددة على المستوى اللاهوتي، وكذلك تاريخيًا، فإن تعريف «الآخر» لن يصبح بهذه البساطة سالفة الذكر. فى هذه الحالة، يمكن للمسلمين الشيعة أن ينظروا للمسلمين على المذهب السُّنّى باعتبارهم «آخرين» والعكس أيضًا صحيح، حين ينظر المسلم الوهابى الذى يعيش فى المملكة العربية السعودية للمسلم السُّنّى الذى لا يلتزم بالراديكالية المحافظة لمعتقدات ومبادئ المنهج الوهابى باعتبارهم «آخرين». ولكى نتعمق أكثر فى هذه القضية، فإن المسلم الأرثوذكسى، سواء كان شيعيًا أو سُنيًّا سيعتبر المسلم غير الأرثوذكسى «آخر». وفى هذه الأيام، فإن من ينتمون للطائفة الأحمدية أو العلوية أو البهائيين والذين يؤكدون دومًا أنهم مسلمون، نجد أنه يتم التعامل معهم



محاكاة تشكيلية لمحاكمة جاليليو بتهمة «الهرطقة»

باعتبارهم «آخرين» حتى فى أكثر البلاد الإسلامية تسامحًا. أما فى الدول التى لا تُعلى من قيمة التسامح، فإننا نجدهم يعانون الاضطهاد، بل يتم إعدامهم.

ولو اعتمدنا على القرآن فقط كمجال لبحثنا، فإن القضية لن تصبح أقل تعقيدًا. وكمثال: إذا تعاملنا مع التصنيف الذى ورد فى مفتتح السورة الثانية من القرآن – سورة البقرة – فإننا نجد حديثًا عن المؤمنين، وغير المؤمنين، والمنافقين. وفى الوقت الذى يُعتبر فيه غير المؤمنين خصومًا للمؤمنين، فإننا نلاحظ أن المنافقين يقفون فى المنطقة «الرمادية» بينهما. وبالرغم من ذلك، فإنه يبدو أن القرآن يعطى الأولوية، من حيث الاهتمام، للمنافقين، وهو ما يتضح جليًا من خلال الطريقة المسهبَة فى التفاصيل والصور المجازية/ الرمزية، «سورة البقرة: ٨ – ٢٠» والتى يقدمها القرآن. بينما صفات المؤمنين يقدمها القرآن فى ٤ آيات فقط بينما يتعامل القرآن مع غير المؤمنين من خلال آيتين.

فى هذه الورقة البحثية، ينصب التركيز على فحص ودراسة الأدلة النصيَّة الذى يطارد الخطاب الأصولى وكذلك الحكومات، بمقتضاها، المفكرين والفنانين والصحفيين والمفكرين الإصلاحيين المسلمين، من خلال الادعاءات بتهم التجديف والردة وإهانة الإسلام. دعونى أبدأ، أولا، بتقديم الخطوط العريضة للمقاربة سالفة الذكر أو ما يمكن أن أسميه منهجى البحثى التجديدى أو – طبقًا لما يقوله خصمى – هرطقتى أو «البدعة».

منهجى البحثى التجديدي

القرآن، طبقًا للمعتقد الإسلامي، هو كلام اللّه الذى ينقل «الرسالة» التى أوحى بها اللّه للبشر من خلال محمد باعتباره رسول اللّه وباعتباره بشرًا كذلك. القرآن واضح جدًا فيما يتعلق بهذه النقطة. تمثل الرسالة رابطا اتصاليًا أو تواصليًا بين المتحدث والمتلقى من خلال شفرة أو نظام لغوي. دون هذه الشفرة، فإن هذه الرسالة لن تصل للمتلقي. شفرة اللغة العربية، الشفرة الإنسانية للمتلقي، تمثل شفرة التواصل أو الاتصال بين المقدس والبشر، والأمر كذلك لأن شفرة المقدس، أيًا كانت، فإنه ليس من المحتمل أن يستوعبها إنسان. بالإضافة إلى ذلك، فإن هدف الرسالة لا يتعلق بالمتلقى وحده، بل إن الأمر يتجاوز ذلك إلى نقلها للمجتمع ومن ثم تنتشر لما هو أبعد من ذلك. ولذلك يجب على هذه الرسالة أن تُفهم بواسطة المجتمع الذى تخاطبه «وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ» (إبراهيم: ٤).

ولأن المتحدث فى حالة القرآن لا يمكن أن يكون موضوعًا للدراسة، فإنه لا يمكننا إلا أن نقارب الرسالة من خلال شفرتها اللغوية ومن خلال لغة المجتمع. ولإنجاز ذلك، يحتاج الدارسون لكل المعلومات التى يمكن توافرها بخصوص المستقبل الأول، محمد، وكذلك المجتمع. وبمعنى آخر، لا يَسع الباحثون إلا أن يبدءوا تحليلهم للرسالة القرآنية إلا من خلال سياق الواقع الذى عاصرته الرسالة ومن خلال ثقافة القرن السابع الميلادي. إن الواقع تمثله الظروف السوسيو – سياسية التى احتوت أفعال هؤلاء الذين خاطبهم القرآن والتى عاش فيها المتلقى الأول للرسالة. بينما الثقافة، على الجانب الآخر، هى عالم المفاهيم الذى تحتويه اللغة وهى نفس اللغة التى تحتوى القرآن وأتى بها. وفى ضوء ما تم ذكره، فلكى نبدأ بسياق الواقع الثقافى سعيًا وراء تحليل الرسالة القرآنية، فإنه يلزم أن نبدأ بالحقائق التجريبية. من

> **يتشابه التجديف مع الهرطقة فى نقاط مشتركة ولكنها تختلف عنه فى أنها عبارة عن الاعتقاد بإيمان مخالف للإيمان الأرثوذكسى**

خلال هذا التحليل لهذه الحقائق، فإنه يمكن لنا إنجاز فهم لائق للقرآن. يجب أن يكون من الواضح، ومن المفهوم كذلك، ومما لا يحتاج إثباتًا أكثر مما قدمنا، أنه يمكننا القول بأن القرآن مُنتَجٌ ثقافي. ومع ذلك، فإن الأمر أكثر تعقيدًا لأن القرآن، كمُنتَج ثقافي، إنما هو جانب واحد من القرآن، وهو الجانب الذى يمثله انبثاقه كنص. الجانب الآخر من القرآن يتمثل فى أنه قد أصبح مُنتجًا لثقافة جديدة. وبمعنى آخر، انبثق القرآن، أولا، كنصَ من داخل واقع سوسيو – ثقافى محدد، مُتضمَّن فى نظام لغوى محدد وهو اللغة العربية ثم، وبالتدريج، انبثقت ثقافة جديدة من خلال القرآن. إن حقيقة أن النص القرآنى تم فهمه والإيمان به قد أدى إلى تولد عواقب ونتائج فى ثقافته غير قابلة للانعكاس.

يأخذنا الحديث عن القرآن باعتباره رسالة، وبالرغم من أن القرآن كان مُتضمنًا فى النظام اللغوى العربي، إلا أن النص القرآنى كان له خصوصياته. لكونه نصًا فريدًا من نوعه، فإنه يوظف بعض الديناميكيات التشفيرية اللغوية الخاصة لنقل رسالته المحددة. هذه الخصوصيات أقرَّ بها العرب وحظت بإعجاب وتقدير بعض من خصوم محمد. بفضل هذه الخصوصيات، ومن خلال التحدى الذى تمَّ فرضه على العرب من خلال القرآن نفسه بأن يأتوا ببعض من النصوص مثل قصار سور القرآن، تبلور الاعتقاد بالإعجاز المطلق للقرآن.

سيكون من الضرورى دائمًا أن ندرس ونفسر القرآن من خلال الخلفية السياقية التى تبلور فيها. وبمعنى آخر، يمكننا القول بأن رسالة الإسلام ما كان لها أن تحدث تأثيرًا لو أن مستقبليها الأوائل عجزوا عن فهمها، لا بد أنهم قد فهموها من خلال سياقهم السوسيو – ثقافى ومن خلال فهمهم وتطبيقهم لها، تغير مجتمعهم. إن فهم الجيل الأول من المسلمين والأجيال التى تلته مباشرة لا يجب، بأى حال من الأحوال، اعتباره فهمًا نهائيًا أو مطلقًا. إن ديناميكيات الشفرة اللغوية الخاصة بالقرآن ستسمح دائمًا بتولُّد محاولات لا نهائية/ لا حصر لها لهذه الشفرة. فى هذه المقاربة التى نتبناها، لا يجب أبدًا أن يتم تجاهل أو تبسيط المعنى السياقى السوسيو – ثقافي، إن هذا «المعنى» مهم للغاية فى تحديد اتجاه الرسالة «الجديدة» للنص. إن الإمساك بهذا الاتجاه من شأنه أن يسهل عملية الانتقال من «المعنى» إلى «المغزى» الخاص به فى السياق السوسيو – ثقافى المعاصر. كما أنه سيمنح المفسر/ المُؤول القدرة، بشكل صحيح وفعال، على استخراج ما هو «تاريخي» وما هو «زمنى أو وقتى محدد بفترة معينة» والذى لا يحمل فى طياته أى مغزى فى السياق المعاصر. وبما أن التأويل هو الجانب الآخر من

> **كل الادعاءات بالردة - التى تعتبر أمرًا شديد الخطورة لسبب سنوضحه لاحقًا - متجذرة فى مبدأ من مبادئ الدين يجعل من الدين «سجنًا» داخليًا**

النص، القرآن، والذى لا يمكن أن ينفصل عنه «أي: ملازم له»، والذى يجب أن يتم فك شفرته فى ضوء سياقه التاريخى والثقافى واللغوي، فإنه يلزم أن يتم خلق شفرة جديدة له من خلال السياق الثقافى واللغوى للمفسر/ المئول، وبمعنى آخر، فإنه يجب إعادة بناء البنية العميقة للقرآن من خلال البنية السطحية. ويترتب على ذلك ضرورة إعادة كتابة البنية العميقة فى بنية سطحية وهى بنية الوقت الحالي.

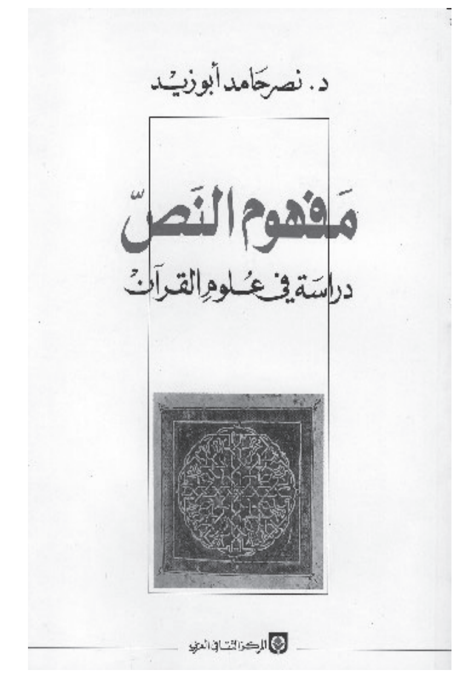
إن هذا يستتبع وجود تعددية تأويلية لأن العمليات المتكررة، والتى لا نهاية لها من التأويل وإعادة التأويل لا بد أن تختلف عن بعضها البعض بتغير الزمن. إن هذا الأمر ضروري، وإلا فإن الرسالة ستنتكس/ ستتقوض، وسيصبح القرآن دومًا، كما هو الحال الآن، عرضة للتلاعبات السياسية والنفعية. وبما أن الاعتقاد فى رسالة الإسلام ينبنى على صلاحيتها لكل البشر، وفى كل زمان ومكان، فإن تعددية التأويل تصبح أمرًا حتميًا. ولكن يلزم الوعى بالفارق بين السياق الأصلى «المعنى» والذى يعتبر ثابتًا لا يتغير بسبب تاريخيته، وبين «المغزى» القابل للتغيير. بالإضافة إلى ضرورة الوعى بأن يكون المغزى مرتبطا بشكل قوى ومتصلا، بعقلانية، بالمعنى لكى نحصل على تأويل أكثر قبولا ومعقولية. وليس ثمة داع لتأكيد أن كل تأويل ينبني/ يتأسس بشكل مرتبط بالتاريخ والثقافة، وتأويلى لا يعد استثناء من ذلك الأمر. إن تأويلى يظل صالحا طالما أنه لا يخرق قواعد المنهجية سالفة الذكر لكى يقفز إلى بعض الاستنتاجات الإيديولوجية «المرغوبة أو المعدة سلفًا». إن المنهجية المقترحة تستلزم، بجانب التحليل السوسيو – تاريخى للواقع والثقافة، توظيف المنهجية الحديثة/ المعاصرة. وحتى الآن، فإن المقاربة الفيلولوجية مقبولة من المؤسسات الدينية بينما يتم رفض التحليل السوسيو – تاريخى بشكل قطعي، ليس فقط فى مجال تأويل النصوص، ولكن أيضًا فى مجال الدراسات الأكاديمية للفكر الإسلامي. إن الاعتقاد بأن النصوص الدينية، مع التسليم بكونها مقدسة/ إلهية وموحاة من اللّه، تعتبر محددة تاريخيًا ومؤسسة ثقافيًا، لهو اعتقاد مرفوض ويتم الحكم عليه باعتباره ردَّة.

إن رد الفعل الحاد هذا يعود إلى الاعتقاد بأن القرآن هو خطاب اللّه «الأزلي»، وهو الاعتقاد الذى ينتمى إلى مدرسة فكر لاهوتية كلاسيكية معينة، وهى المدرسة الأرثوذكسية، والتى أصبحت تمثل العقيدة المهيمنة والمقبولة فى الإسلام السُّني. يعرف الباحثون بتواجد مدرسة لاهوتية عقلانية تُعرف بالمعتزلة والتى قالت بـ «خلق» القرآن وبما يعنى عدم أزليته، وإلا فإن مفهوم التوحيد النقي، وهو مفهوم مركزى بالغ الأهمية فى الإسلام سيتضرر. وكما يكشف التحليل السوسيو – تاريخي، فإن هذه المواقف اللاهوتية لم تكن نتاجًا لتأمل تم ممارسته فى برج عاجي، لقد عبَّروا من خلال مصطلحات دينية عن مواقف سوسيو – سياسية مختلفة لمؤيديهم. وبالرغم من ذلك، فإن هذه المواقف يتم تجاهلها ويتم فهم هذين المذهبين فى الخطاب الإسلامى المعاصر من خلال مصطلحى «الصواب والخطأ» أو «الحقيقى والزائف». يعتبر مذهب «الخلق» بدعة بينما يعتبر مذهب «الأزلية» هو الحق. ولكى نعرض لهذه القضية بشكل أكثر تبسيطا: لو لم يكن القرآن أزليًا، فإنه قد تم خلقه فى سياق معين، ولا بد أن تُفهم رسالة القرآن من خلال هذا السياق. إن هذه الزاوية تفسح المجال أمام إعادة التأويل لأن خطاب اللّه يجب أن يُفهَم طبقًا لروح العقلانية وليس طبقًا لحرفيَّته. النتيجة النهائية هى أن السلطات العامة و/ أو المجتمعات سيكون لها الحق، بشكل أولى وأساسي، فى تأويل وتطبيق الرسالة. ولو أن خطاب اللّه، على الجانب الآخر، أبدي، وبما يعنى أنه غير مخلوق، وغير قابل للتغيير «أو ثابت»، فإن فكرة إعادة التأويل من خلال موقف جديد ستصبح فكرة مُحرَّمَة، حيث أنه لن يكون هناك فارق بين الحرف والروح، وحينئذ، فإن علماء الدين/ اللاهوتيين، وحدهم، سيكون لهم السلطة فى الحفاظ عليه وممارسة الوصاية. وبمعنى آخر، فإنه فى هذه الحالة الأخيرة، سيصبح وجود سلطة إسلامية مماثلة للكنيسة المسيحية أمرًا ضروريًا، وهذا ما يمكننا اعتبار أنه قد حدث فى التاريخ الثقافى والسوسيو – سياسى فى الإسلام منذ القرن التاسع الميلادى حينما تم إعلان أن الاعتقاد بـ «أزلية» القرآن، بكل ما يحتويه هذا الاعتقاد من دلالات، هو «الحقيقة» بعد أن تبنته السلطةالسياسية.

التجديف



صورة لمعبد بوذا







فى البداية، فإن التجديف، طبقًا للموسوعة البريطانية (١٩٩٦)، «فى المسيحية... يتشابه التجديف مع الهرطقة فى نقاط مشتركة، ولكنها تختلف عنه فى أن الهرطقة عبارة عن الاعتقاد بإيمان مخالف للإيمان الأرثوذكسى. وبالتالي، فإنه ليس من قبيل التجديف أن تنكر وجود اللّه أو أن تتشكك فى العقائد المؤسسة للإيمان المسيحى إلا إذا تم ذلك بطريقة تحمل فى طياتها روح السخرية والاستهزاء. فى الدين المسيحي، اعتبر اللاهوتيون الأخلاقيون أن التجديف خطيئة، القديس توما الأكوينى وصف التجديف بأنه خطيئة ضد الإيمان. وبالنسبة للمسلم، فإنه يعتبر من قبيل التجديف أن يتحدث باحتقار أو باستهانة عن اللّه وأيضًا عن محمد. كل الأديان، على الأقل الأديان الثلاثة التى تمتلك كتابًا مقدسًا، تحكم أو تنص على عقاب محدد نتيجة للتجديف والهرطقة بغض النظر عن التمييز النظرى بينهما كما سبق الذكر. نص القانون الموسوى على الرجم حتى الموت كعقوبة للمُجدِّف. وفى عهد الإمبراطور البيزنطى جستنيان الأول (حكم ٥٢٦ – ٥٦٥)، تم إعلان الموت كعقوبة للتجديف.

فى الإسلام، لا توجد عقوبة شرعية دنيوية فى القرآن، لقد تم تأسيس هذه العقوبة فى الحقبة بعد القرآنية بواسطة المشرعين كما سيرد لاحقًا. فى العديد من المجتمعات، تم اعتبار التجديف، بشكل أو بآخر، جريمة يعاقب عليها القانون. فى الولايات المتحدة الأمريكية تمتلك الكثير من الولايات تشريعًا يقف فى مواجهة هذا الجرم. فى إسكتلندا، وحتى القرن الثامن عشر، كانت عقوبة هذه الجريمة هى الموت، وفى إنجلترا، يعد التجديف جريمة دستورية وجريمة – أيضًا – وفق قانون العادة والعرف. ولقد تم اعتباره جريمة وفق قانون العادة والعرف فى القرن ١٧، إن الفكرة الأساسية تمثلت، على ما يبدو، فى اعتبار الهجوم على الدين يعنى بالضرورة هجومًا على الدولة، خصوصًا، عندما تتبنى هذه الدولة دينًا معينًا تنتسب إليه. ولعل هذه الفكرة هى نفسها السبب وراء فرض هذه العقوبات – عقوبات التجديف – فى بعض الدول ذات القوانين العلمانية.

لا يسهل علينا أن نجد تعريفًا واضحًا للتجديف أو الهرطقة مقارنة بالردَّة، والتى تعنى «الارتداد/ العودة» عن الإسلام، والذى يعني، حرفيًا، ترك المرء الإسلام خلف ظهره والسير فى اتجاه جديد. وبما أن الأمر كذلك، فإن التجديف يستخدم فى الاصطلاح الإسلامى لنقل معنى «إهانة العقيدة الإسلامية»، سواء ارتكبها مسلم أو غير مسلم. ومن المثير للدهشة أن القرآن يطلب من المسلمين ألا يقوموا بتوجيه إهانات للمشركين ولآلهتهم وألا يسبوهم لكى يتجنبوا أن يسب المشركون اللّه «وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ من دُون اللَّه فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بغَيْر علم» (الأنعام: ١٠٨). إن الدعوة هنا موجهة لمسلمين يمارسون التجديف ضد «الآخرين». وبالرغم من أن هذه الرسالة كانت تخاطب المجتمع المسلم المكى حديث النشأة، حيث كان المسلمون يتعرضون للاضطهاد، إلا أن مغزى هذه الرسالة يظل ملائمًا لنا فى العصر الحديث، فقبل أن نطلب من الآخرين أن يتوقفوا عن الهجوم على الإسلام أو الرسول، فإنه يجب على المسلمين أن يكفوا عن الهجوم على الأديان الأخرى. فى العالم الإسلامي، يتم اعتبار الكتب، والأفلام، والمسلسلات، وأفلام الأطفال، والرسومات من قبيل التجديف لو احتوى أي منها على إشارة أو تلميح يمكن اعتبارهما بمثابة إهانة من وجهة نظر الفكر المحافظ. إن التاريخ الذى يرصد التجديف فى كل أشكال ووسائل التعبير فى العالم الإسلامى المعاصر، لهو تاريخ مفصل وطويل حقًا. ولعل أحدث هذه القضايا هى قضية سلمان رشدى وروايته «آيات شيطانية» والرسوم الدنماركية المسيئة للرسول.

إن كاتب هذا البحث يدافع عن حرية التعبير، ويناشد رفقاءه المسلمين أن يتحلوا بروح التسامح مع أى نقد أو تعد على الإسلام، والقرآن، والرسول، طالما كان لا يتضمن التشهير أو القدح فى المسلمين إما كجماعات أو كأفراد. وفى الحالة الأخيرة، فإن إجراءات التقاضى القانونية فى المحكمة هى الرد المناسب. إن نقد الدين أو مهاجمته أو العدوان عليه أو على ثقافته يجب أن يتم النظر إليه باعتباره تحديًا يتطلب ردًا فكرًا عقلانيًا. إن المشكلة فى الكثير من البلدان الإسلامية ليست مشكلة الإسلام، بل هى مشكلة تتعلق بغياب قيم الحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان. هل المشكلة اجتماعية أم سياسية أم ثقافية؟ ربما تكون المشكلة مركبة، وبالتالي، فإنها ستحتاج لقدر كبير من المعلومات.



الهرطقة

سنورد، مرة أخرى، اقتباسًا مطولا من الموسوعة البريطانية كما يلى «إن الكلمة اليونانية hairesis (والتى اشتقت منها كلمة هرطقة) كانت فى الأصل مصطلحًا حياديًا يدل على اعتناق الإنسان لمجموعة محددة من الآراء الفلسفية. وحين أتت المسيحية، فإن هذا المصطلح أصبح يحمل دلالة الرفض أو عدم الموافقة. وقد حدث ذلك لأن الكنيسة، ومنذ البداية، اعتبرت نفسها حارسة وحامية الوحى المقدس، وبالتالى كانت هي، وحدها، صاحبة الحق الأوحد فى التفسير والشرح من خلال الإلهام الذى يصل لها من خلال الروح القُدس. وبالتالي، فإن أى تأويل اختلف عن التأويل الرسمى للكنيسة كان يعتبر بالضرورة «هرطقي» بالدلالة الجديدة، التبخيسية/ الانتقاصية للكلمة».

يتم تحديد الهرطقة من خلال المنظور السلطوى للكنيسة بحيث يكون التأويل الكنسى للمسيحية هو التأويل الوحيد الصحيح، والذى تُصَدِّق عليه الروح القُدس. إن ادعاء امتلاك الحقيقة Truth هى القضية المحورية. إن آباء الكنيسة لم يتسن لهم أن يدركوا أن عيسى كان مهرطقًا وفق الرؤية الأرثوذكسية اليهودية فى القرن الأول. وفى قرونها الأولى، تعاملت الكنيسة المسيحية مع كثير من الهرطقات، وكان الحرمان من الكنيسة بمثابة الوسيلة الأساسية لمحاربة المهرطقين. فى القرن الثانى عشر والثالث عشر تم إنشاء محاكم التفتيش بوسطة الكنيسة لمحاربة الهرطقة، وحينما رفض المهرطقون أن يرتدوا/ يتخلوا عن معتقداتهم، بعد أن سعت الكنيسة فى هذا الاتجاه، كان يتم تسليمهم للسلطات المدنية لمواجهة العقوبة، وعادة يتم إعدامهم.

ظهر موقف جديد فى القرن السادس عشر مع حركة الإصلاح والتى أدت، تدريجيًا، إلى عملية العلمنة، فقدت الكنيسة اليد العليا فى تقرير الحقيقة the Truth. ومع التزايد التدريجى فى نزعة التسامح فى القرن العشرين، قامت الكنائس البروتستانتية بإعادة النظر فى مفهوم الهرطقة كما تم فهمه فى كنيسة ما قبل الإصلاح. والآن، لا يبدو لهم أن هناك تعارضًا بين تمسُّك شخص بمذاهب طائفته وبين عدم اعتباره لهؤلاء الذين يملكون وجهات نظر أخرى بمثابة هراطقة. والكنيسة الكاثوليكية الرومانية، أيضًا، تضع حدًا فاصلا بين هؤلاء الذين يتمسكون بحرية وإصرار بخطأ مذهبى وبين هؤلاء الذين يعتنقون هذا الخطأ عن غير عمد، ربما كنتيجة لنشأتهم فى بيئة أخرى لها تقاليد مغايرة.

وفى الإسلام، وكما أن التجديف لا يرد فى حصيلة الألفاظ القرآنية، فإن الهرطقة، كما تم شرحها لاهوتيًا فيما بعد، لا ترد فى القرآن. والكلمة القرآنية التى قد تقترب من معنى الهرطقة هى «البدعة» والتى تعنى باللغة الإنجليزية "Innovation" بمعنى الابتداع. وترد مشتقات الجذر اللغوى لكلمة البدعة «ب – د – ع» فى أربع آيات، وفى واحدة منهم يستخدم الفعل بدلالة الابتداع غير الجائز والذى يشير إلى الرهبانية المسيحية «وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ» (الحديد: ٢٧). إن هذا هو المثال الوحيد الذى يرد بأن الرهبانية، كممارسة، لم تكن مدعومة بسند إلهى ولا يوجد لها سابقة من قبل. والقرآن لا ينص على أى عقوبة كجزاء لهذا الابتداع. وبما أن الهرطقة ترتبط ارتباطًا وثيقًا بالأرثوذكسية، فإن هذا المصطلح كان عليه أن ينتظر قرنين بعد القرآن لكى يكتسب، تدريجيًا، حمولته اللاهوتية فى الوقت الحاضر. لقد نهضت الأرثوذكسية الإسلامية فى مواجهة اللاهوت العقلانى للمعتزلة فى القرن التاسع فى عهد الخليفة العباسى المأمون (حكم ١٩٨/٨١٣ – ٢١٨/٨٣٣) الذى تبنى المذهب المعتزلى الذى ينص على «خلق» القرآن وجعله مُلزمًا. اتخذ هذا الإلزام شكلا مماثلا لمحاكم التفتيش فيما عُرف بعد ذلك باسم «المحنة» والتى دامت لأكثر من ١٥ عامًا، والتى انتصرت فيها الأرثوذكسية فى النهاية.



المقاربة النقدية التاريخية لدراسة القرآن والحديث والشريعة لا يتم الترحيب بها بشكل عام وتُرفض بشدة بواسطة علماء الدين والمشايخ



البدعة، لذلك، أصبحت تقف كنقيض للسنة والحديث وأفعال الرسول وضد كل ما قيل وحدث فى فترة حياته، والذى تم نقله شفهيًا قبل أن يتم تجميعه وترتيبه وتصنيفه فى كتب الحديث المعتبرة والمعترف بشرعيتها. إن الحديث الذى يتم اقتباسه أكثر من أى حديث آخر والذى يرد فى كتب الأحاديث، هو هذا الحديث الذي يقول: «وَشَرّ الأمُور مُحْدَثَاتُهَا وَكُلّ مُحْدَثَة بِدْعَةٌ وَكُلّ بِدْعَة ضَلالَةٌ وَكُلّ ضَلالَة فى النَّار».

وبالرغم من ذلك، فإنهُ يَمكن لنَا أن نجد بعض الأخبار المنسوبة للرسول والتى يوجد بها تمييز بين البدعة الحسنة والبدعة السيئة. واعتمادًا على مثل هذه الأخبار، ميَّز الفقهاء بين البدعة الحسنة المقبولة والبدعة السيئة المرذولة والمرفوضة، الأولى يُثاب عليها من يفعلها بينما العقاب هو نصيب من يرتكب الثانية. هناك أيضًا العديد من الأخبار التى تؤكد أن «اتباع السنَّة أفضل من اتباع البدعة وإن ثبت حُسنها». إن هذه المسألة تستدعى ضرورة تطبيق مقاربة تاريخية مماثلة فى دراسة الحديث. يصح القول بأن الباحثين الكلاسيكيين بذلوا قصارى جهدهم فى فحص الأحاديث بعناية سعيًا وراء استخراج الموضوع والضعيف منها. ومع ذلك تظل الحاجة إلى منهجية حديثة لهذا الفحص أمرًا حيويًا.

وكما حدث فى تاريخ الكنيسة المسيحية، فإن مفكرين وشعراء وفنانين وفلاسفة تمت إدانتهم واعتبارهم هراطقة فى تاريخ الإسلام. واعتمادًا على السياق السوسيو – سياسى والثقافى والمكاني، والذى كان متسامحًا فى بعض الأحيان ولم يكن متسامحًا فى البعض الآخر، لم يكن يتعرض لهم أحد بأذى وإن كان يُنظر لهم بازدراء أو كان يتم إعدامهم. وفى السياق المعاصر، أصبح عدم التسامح هو المعيار وأصبح الإعدام بمثابة العقوبة التى تم تبنيها مؤسسيًا وتم تشريعها فى قانون العديد من الدول. إن التمايزات بين الهرطقة والتجديف والكفر صارت غير واضحة، فكلهم يتم التعامل معهم باعتبارهم ردَّة. لقد تم إعدام السودانى محمود محمد طه فى عام ١٩٨٥ على خلفية إدانته بالردَّة، فى حين أن نظريته المتعلقة بـ «الرسالة الثانية فى الإسلام» لا تدعو إلى هجر الدين أو التخلى عنه.

الردَّة

إن كل الادعاءات بالردة، والتى تعتبر أمرًا شديد الخطورة لسبب سنوضحه لاحقًا، متجذرة فى مبدأ من مبادئ الدين يجعل من الدين «سجنًا» داخليًا. فعندما يُزج بالشخص فى هذا السجن، إما لأنه وُلد كذلك أو لأنه تحول للإسلام، فلا مخرج له منه. ولا أظن أن أى مسلم قد يفكر فى الإسلام كسجن، لأن هذا المبدأ، وببساطة، سيجعل من اللّه ورسوله «حراسًا» لهذا السجن، ويالها من صورة قبيحة! إن الشخص الأصولى لا يمانع ولا يقف ضد هذا الاعتقاد طالما أنهم قد جعلوا من أنفسهم حراسًا للإيمان/ السجن وهم أيضًا لن يرفضوا ذلك الاعتقاد لأن صورة اللّه التى يسعون لتثبيتها هى صورة اللّه القوي، الجبار، الغاضب، على حساب صورة اللّه الرحمن، الغفور، المحب. إنهم، فى الحقيقة، يعكسون حقيقة طبيعتهم التى تتميز بالاستبدادية والقوة والإكراه ومن ثم يقومون بإسقاطها، مرة أخرى، على صورة المقدس.

إن الردَّة، ببساطة، هى حق الإنسان فى إعادة النظر لانتسابه، ذكرًا كان أو أنثى، للرابطة الدينية أو للانتماء الديني. إنه حقٌ صميم ومتجذر فى النصوص الدينية التى تدعو الأفراد لأن «يغيروا» دينهم. المسيحية دعت/ تدعو اليهود وغير اليهود لكى يتحولوا للمسيحية، والإسلام دعا/ يدعو كل البشر لأن يكونوا مسلمين بدلا من أن يكونوا يهودًا أو مسيحيين أو وثنيين.

وإجمالا، فإن كل دين يحمل دعوة للردَّة، والتى تستلزم، بالمقابل، تصريحًا قويًا ومضمونًا بأن الإنسان حرٌ فى اتخاذ مثل هذا القرار. إن هذه الحرية الممنوحة للإنسان تعتبر بمثابة متطلب أساسي، يستحيل دونه أن يقوم الإنسان بهذا التحول أو هذه الردَّة. بمعنى آخر، يضمن اللّه، فى الإسلام، حرية الفرد فى اختياره لهذا الدين. ومنطقيًا، فإنها مغالطة صريحة حين يتم الحد من «حرية» الفرد فى الاختيار، لأن الحرية تعنى الاختيار من العديد من الاحتمالات الممكنة. وهل من المعقول أن نعتقد أن هذه الحرية التى كفلها اللّه للجميع هى حرية فى اتجاه واحد فقط ومن ثم ينعدم هذا الطريق بعد اختيار الإسلام؟ هل من الممكن، من وجهة النظر اللاهوتية، التعامل مع اللّه وكأنه «ديكتاتور»؟ مرة أخرى، هذا ما يود الأصوليون أن يقنعوا المؤمنين به.

والآن، لماذا يعتبر الاتهام بالردَّة بمثابة خطر شديد فى أى بلد مسلم سواء كان نظام الحكم ثيوقراطيًا أو شبه ثيوقراطى أو شبه علماني؟

لأنه، وطالما كان نظام الحكم بعيدًا عن كونه نظامًا شاملا، ديمقراطيًا، ليبراليًا، وطالما كانت الشريعة، وليس القانون الدستوري، هو أساس التشريع، فإن الردَّة تظل جريمة يُعاقب عليها بالإعدام، وذلك بالرغم من أن المرتدين قد تم تخصيصُ مكان فى النار لهم كما تنص آيات القرآن. بينما لا يوجد أى عقاب جسدى للمرتدين فى عالمنا الدنيوي.

- «وَقُل الحَقُّ من رَّبِّكُم. فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُر. إنَّا أَعْتَدْنَا للظَّالمينَ نَارًا» (الكهف: ٢٩).
- «يَا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ منكُمْ عَن دينه فَسَوْفَ يَأْتى اللَّهُ بقَوْم يُحبُّهُمْ وَيُحبُّونَهُ» (المائدة: ٥٤).
- «إنَّ الَّذينَ كَفَرُوا بَعْدَ إيمَانهمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئك هُمُ الضَّالُّونَ» (آل عمران: ٩٠).

«إنَّ الَّذينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَّمْ يَكُن اللَّهُ ليَغْفرَ لَهُمْ وَلا ليَهْديَهُمْ سَبيلا» (النساء: ١٣٧).

عقب وفاة الرسول، ثارت بعض القبائل العربية ضد سلطة الخليفة الأول «أبو بكر» (١١/٦٣٢ – ١٣/٦٣٤) وامتنعوا عن دفع الزكاة التى اعتبروا أنها لا تُدفع لغير الرسول. ومن ثم انخرطت جيوش المسلمين فى عدد من المعارك عُرفت فيما بعد باسم)حروب الردَّة(

تاريخيًا، لقد كان هذا الحدث بمثابة ثورة سياسية ولم يكن بمثابة ردَّة دينية. لقد كان وائل حلاقا محقًا عندما أوضح أنه «من المحتمل، وبنسبة كبيرة، أن الأحداث التى أدت إلى ما يسمى بحروب الردَّة، بالإضافة إلى الآثار الأساسية التى ترتبت على هذه الحروب والتى ارتبطت بالعقلية الجمعية المسلمة، قد ولَّدت عنصرًا جديدًا فى التعامل مع مفهوم الردَّة. وباعتبارها انعكاسًا لخبرة التجربة ما بعد النبوية، فإن «منظومة الحديث» تشترط/ تنص على اعتبار أن المرتد عقوبته القتل، وهو اتجاه مغاير لاتجاه القرآن. وبالتأكيد، فإن هذا الشرط يعكس واقعًا أتى بعد محمد ولا يتوافق مع أفعاله كذلك. فى الواقع، لو أننا تتبعنا ما يمكننا التعامل معه كمعلومات عن محمد يمكن التعويل عليها، فإن القرآن ينبثق باعتباره تمثيلا أكثر دقة فيما يخص تعامله مع الردَّة. من المرجح أن أبا بكر كان هو أول من قام بقتل عدد من المرتدين، وهو فعل تم اعتباره، فى قوته، سنَّة أو ممارسة عن الرسول. وقد أقرَّت مصادر لاحقة هذه العقوبة وعللت ذلك بأن الصحابة وافقوا على ما فعله «أبو بكر». وحتى الآن، فإن أغلب الدراسين والباحثين المعاصرين يميلون للتعامل مع هذه الحروب والمعارك التى حدثت فى عهد أبى بكر باعتبارها حروب الردَّة التى حدثت فى شبه الجزيرة العربية.

ومن وجهة نظر الشريعة، أو القانون الإسلامي، فإن الردَّة تُعرَّف باعتبارها تحولا أو ارتدادًا عن الإسلام من خلال القول أو الفعل الهرطقي، ولو كان على سبيل المزاح أو الدعابة. يدخل فى مجال الردَّة كذلك اعتناق الإنسان لمذهب لاهوتى ينفى وجود اللّه أو ينكر الرسل أو السخرية من اللّه ورسوله أو سبّهما أو السجود لغير اللّه مثل السجود لصنم أو القمر أو الشمس أو إلقاء نسخة من المصحف فى سلة المهملات أو الإعلان عن شرعية ممارسة يتم اعتبارها، من وجهة نظر الشرع، ممارسة محرمة أو غير شرعية مثل الزنى... إلخ.

إن كان المرتد ذكرًا بالغًا فإنه يُمنح فترة تصل لثلاثة أيام لإعادة التفكير فى قراره «أى ردته». ولو تاب، فإنه لن تكون هناك عقوبة شرعية عليه. ولو لم يَتُب، يتم إعدامه بالسيف. أما المرتدة الأنثى، فإنها تتعرض لنفس العقوبة طبقًا لأغلب المدارس الفقهية، فى حين يتنازل البعض عن العقوبة ويستبدلونها بالسجن. ومن النتائج المترتبة على تهمة الردَّة، على مستوى الحقوق المدنية، مصادرة أملاك المُرتَد ونقلها أو تحويلها لخزينة الدولة، فى حين تعتبر كل معاملاته المالية باطلة. ولقد بُذلت، فى الوقت الحالي، مجهودات بواسطة علماء لاهوت معتدلين لإلغاء هذه العقوبة – عقوبة الردَّة – من خلال تمديد فترة التوبة لأجل غير محدد. إن المنطق الذى يقدمونه يستند إلى أن المُرتد قد يعود مرة أخرى للإسلام فى أى لحظة قبل موته. وبالتالي، فمن الأفضل ترك باب العودة للإسلام مفتوحًا أمامه طالما كان على قيد الحياة.

الخاتمة

كل الادعاءات سالفة الذكر على درجة كبيرة من الخطورة بالرغم من أن القرآن – وهو النص المؤسس فى الإسلام – لا ينص على عقوبة للردَّة إلا فى الآخرة فقط. ولكن الفقهاء، وتماشيًا مع خبراتهم السوسيو – سياسية والثقافية قاموا إما بتطوير المعنى القرآني، مثلما فعلوا فى تعاملهم مع منظومة الحدود، من خلال وضع الشروط المعقدة التى يلزم استيفاؤها قبل تطبيق الحدود أو بالهبوط بالمعنى القرآنى – من حيث الدرجة أو المرتبة – كما فعلوا مع قضية الردَّة التى تمت مناقشتها أو فيما يتعلق بالموقف من المرأة أو العلاقة مع غير المسلم. وبحسب ما يبدو، فإنه يتضح أن مهمة الفقهاء، باعتبارهم رجال قانون انشغلوا بتطوير نظام شرعى قانوني، كانت عبارة عن سعيهم لتثبيت الاختيارات المتعددة والمتنوعة فى القرآن من خلال تثبيت اختيار واحد واستبعاد الاختيارات الأخرى. ولقد تحقق ذلك من خلال تطبيق العديد من الآليات. ولقد كانت آلية النسخ هى الآلية الأكثر فعالية. وبالتالى فإن دراسة نقدية تاريخية للشريعة ستكشف عن حدودها وترفع الغطاء عن الحقيقة المستترة والتى تنص على أن الشريعة نتاجٌ بشرى وهو الأمر الذى يُضاد الادعاء السائد بألوهية مصدرها.

إن المقاربة النقدية التاريخية لدراسة القرآن والحديث والشريعة لا يتم الترحيب بها بشكل عام وتُرفض بشدة بواسطة علماء الدين والمشايخ، بينما، وعلى الجانب الآخر، يتم تقدير مثل هذه المقاربة، فكريًا، وبثقة، من الشباب المسلم فى العالم العربى وكذلك فى البلاد الإسلامية التى لا تتحدث باللغة العربية. لقد عملت كعضو فى المجلس الاستشاري، لعدة سنوات الآن مع مؤسسة «الحرية للجميع» Liberty For All Foundation (http://www. libforall. org/) والتى تحرص على دعم ونشر «ثقافة الحرية والتسامح عبر العالم» بكل همة ونشاط. إن مدير المؤسسة وأعضاء مجلس الإدارة، داعمون بشدة للمقاربة التى نتبناها باعتبارها وسيلة لبلوغ وإدراك رسالة التأسيس فى الإسلام. لقد قرروا أن يؤسسوا للمعهد الدولى للدراسات القرآنية (International Institute of Qur'anic Studies – IIQS) والذى سأتولى إدارته. ولقد كانت ورشة العمل/ التدريب التى انعقدت بإندونيسيا، واستمرت لمدة ٦ أسابيع بمجهودات مكثفة، والمتعلقة بـ «الهرمنيوطيقا القرآنية» بمثابة النشاط الأكاديمى الأول. ولقد تم طرح هذه القضية محل الدراسة وتمت مناقشتها وتحليلها وتفسيرها. ولقد شارك فيها ١٢ باحثًا فى الدراسات الإسلامية. ولا يعتبر من قبيل المبالغة حين نقول إنه، ومن خلال الدعم المستمر من Libforall، فإن هذه المقاربة، مقاربة «الهرمنيوطيقا/ التأويلات الإنسانية»، ستنمو وستزدهر.

ترجمة: إسلام سعد